

التعليمية والنص الأدبي: محاولة لتنظير تجربة بيداغوجية (1)

ترجمة : الطاهر لوصيف
المركز الجامعي بتيبازة

1 - يشكل اليوم الاستثمار البيداغوجي للنصوص الأدبية الموجه لذوي المستوى التعليمي المتقدم (Niveau avance) إجماعا حول ضرورته، غير أن القضايا المطروحة في الجانب التطبيقي تبقى متعددة : فمن حيث الحجم، ما المنزلة التي يتوجب تخصيصها لهذا النوع من التعليم ؟ وهل يجب أن ننشئ درسا خاصا به ؟ وأي برنامج يمكن اعتماده ؟ وأي طريقة تعليمية يمكن توظيفها ؟ وما إلى ذلك .

غير أنه ليس بالإمكان هنا معالجة مجموع القضايا المطروحة أعلاه، ولكن يمكن تقديم عرض لتجربة تربوية جرت بشكل مزدوج في سياقين اثنين بجامعة تولوز 2، في سياق ما قام به كل من مركز الدراسات الفرنسية الموجه للأجانب (CEFE) : Centre d'études françaises pour étrangers التابع للمؤسسة الجامعية : (CEFE-DU) ولشعبة علوم اللسان (section des sciences du langage) دبلوم إتقان الفرنسية كلغة أجنبية : (Maitrise de français langue étrangère) .

1 - 2 في الواقع، لقد كنت أدرس خلال عشر سنوات في (CEFE-DU) نمطين اثنين متميزين من الدروس الأدبية الموجهة إلى أفواج غير متجانسة (Hétérogènes) من المتعلمين ذوي المستوى المتقدم، وكان الهدف التعليمي الوحيد لأفراد أحد الفوجين هو تعلم الجانبين الشفاهي والكتابي للغة الفرنسية، وحسبما أظهرته اختبارات القياس فإن ملكة الكتابة للفوج الثاني كانت أحسن من ملكة الفوج الأول.

وفضلا عن ذلك، فقد كنت منذ خمس سنوات، ونزولا عند طلب «بول ريفان» (Paul Rivenc) أشرف على تكوين عدد مكن سيكونون مستقبلا مكونين للغة الفرنسية كلغة أجنبية (FLE : français langue étrangère)، لاسيما ما يتعلق باستغلال النصوص الأدبية في الأقسام الخاصة بـ (FLE) من ذوي المستوى التعليمي الثاني (Niveau 2).

ولقد كان ذلك هو الثمرة - الراهنة والمؤقتة بلا شك - التي قطفتها من تلك التجربة المزدوجة التي اترحها اليوم لتشاركوني فيها النظر والتأمل، إن الأمر لا يتعلق في الحقيقة بطرح نظرية تعضدها الممارسة التطبيقية على نحو صارم يجعل من المتعذر ردها أو يرفعها إلى مستوى العصمة رغم كل الظروف، وإنما هي محاولة للتنظير (Théorisation) صادرة عن عشر سنوات من المساءلة والبحث والريبة المتواصلة...

1 - 3 إن الوضعية البيداغوجية التي تنسلك فيها هذه المحاولة تتحدد على نحو مسبق بأنها: حصة خاصة بتعليم الأدب تجري بشكل أسبوعي مدتها الزمنية ساعة ونصف، تقدم لمتعلمين من ذوي المستوى الثاني (Niveau 2) لم يكونوا قد اختاروا شعبة خاصة.

2 - والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه على المعلم يتعلق في الحقيقة بالمنزلة (statut) الممنوحة للنص الأدبي: (texte littéraire: TL) وذلك باعتبار أنه من ناحية: موضوع - نص أدبي (Objet-texte littéraire) وأنه: موضوع بيداغوجي: (objet pédagogique) من ناحية أخرى.

2 - 1 منزلة (ال) موضوع نص أدبي:

انطلاقا من أن عملية الكتابة هي عملية تدوين، فإن الـ: موضوع - نص أدبي: (Objet-texte littéraire) هو منتج منته، معروض على الوجه الذي أنشئ عليه، ولذلك فمما يميزه للوهلة الأولى هو انغلاقه.

- يعد النص الأدبي (TL) موضوعا دالا: (Signifiant) إذ يبقى المطلوب هو اكتشاف المدلول (Signifié) بفضل عملية موازية لعملية الكتابة: ألا وهي القراءة.

- يقتضي تبليغ النص الأدبي (TL) للجمهور أن يشرع قراؤه المفترضون هؤلاء في قراءته انطلاقا من توظيف ملكة لسانية: (Compétence linguistique) وملكة تبليغية: (Compétence communicative) مقارنة لتلك التي يملكها كاتب النص، وكذا انطلاقا من مجموعة المعارف التي يتقاسمونها معه.

- يتم ضمان الانسجام⁽²⁾ الذي يميز النص الأدبي بفضل الربط الصارم والمنتظم (Systématique) فيما بين مختلف مستويات بنيته [النص الأدبي]⁽³⁾.

- تجري إعادة بناء الانسجام في النص الأدبي بفضل عملية القراءة، وذلك من خلال تفعيل العلاقات الممكنة: التركيبية (Syntagmatique) والاستبدالية (Paradigmatique)، وبالنظر إلى العناصر المكونة للنص الأدبي فإن العلاقات المذكورة تخضع لعدة متغيرات، وعليه فإنه الرغم من انغلاق النص الأدبي فهو يبقى مفتوحا، فهو متعدد المعاني (Polysémique).

- إن تعدد المعاني ذلك لا يفتح إلا ضمن الحدود التأويلية التي تبيحها اللغة من جهة، ويسمح بها النص الأدبي من حيث هو مؤسسة إبداعية من جهة أخرى.

2 - 2 إن الغرض هنا ليس هو تعريف النص الأدبي، لأنه قد تبين في الماضي⁽⁴⁾ أنه من السهل أن نحدد ما ليس نصا أدبيا بخلاف ما إذا كان المطلوب تحديد ما هو كذلك، والحقيقة أن تلك العبارات الأساسية التي تنتمي إليها أصناف الخطاب: (catégories de discours) والموضوعات الفنية، لا تكفي لتحديد مميزات النص الأدبي.

ومادام أن الهدف البيداغوجي ليس هو تكوين هواة واعين أو نقادا للفن الأدبي، وإنما يتوجه الهدف إلى جعل المتعلمين، على نحو ما، قادرين على قراءة النصوص الأدبية باللغة التي يتصدون لاكتسابها، ولذلك فإن الهدف يتمثل فقط في محاولة ضبط قائمة من الخصائص اللازمة لكل «موضوع - نص أدبي»؛ وعليه تبقى الحاجة قائمة إلى تحديد منزلة النص الأدبي من حيث هو «موضوع بيداغوجي»: (objet pédagogique).

3 - منزلة النص الأدبي كموضوع بيداغوجي:

- باعتبار أن النص الأدبي يمثل وثيقة بيداغوجية، فمن الواجب أن يستثمر كما هو: وذلك لأن التعرف عليه من قبل المتعلمين يعد أحد الرهانات التدريسية الأساسية لحصة الأدب، ومن ناحية التعلم للغة فالنص الأدبي ييسر تعلم معاني ثانوية، كما يمكن من صياغة صنافه (typologie) للنصوص الأدبية التي تعتبر وجها متميزا للخطاب.

- تعد الملكة اللغوية والتبليغية للمتعلمين من الناحية التعريفية، مختلفة عن تلك التي يملكها الكاتب [مؤلف النص الأدبي]، وباعتبار أن النص الأدبي وثيقة بيداغوجية، فإنه يصير من الواجب، والحال كذلك، أن يتعرف عليه ويقرأ بتوسل معايير تفسيرية [تأويلية : Interprétatives] وتقييمية (évaluatives) من شأنها أن تعزو إليه تقييم الثقافة الفرنسية، وذلك حتى لو توجب كذلك أن يقرأ ويتعرف عليه من خلال توظيف القيم الثقافية التي سبق للمتعلمين اكتسابها، وباعتبار الموقف الشخصي تجاه مختلف الأوجه التي يتميز بها الأثر الأدبي.

- من المؤكد أنه توجد علاقة بين الـ «موضوع - نص أدبي» والواقع (réel)، غير أن الوضعية التواصلية التي يكرسها النص الأدبي ليست مماثلة لتلك التي توفرها المشافهة (oral)، إن الواقع قد أعيد بناؤه بفضل النص الأدبي على نحو اصطناعي واتفاقي وشخصي: فهو في الحقيقة واقع وهمي (pseudo - réel)، خاضع للمتغيرات الممكنة للقراءة.

- باعتبار أن الـ «موضوع - نص أدبي» هو نتيجة ترابط مركب فيما بين عناصر بنيوية (Structuraux) تنتمي إلى مستويات مختلفة، وباعتبار أن غلوسيمائية «المسلاف» التي بعثت حركية ترابطية بين العبارة (expression) والمحتوى (contenu) في الأنظمة السيميائية، والتي تنحصر خاصيتها الأساسية في الميزة التقابلية (isomorphie) [بفضل النظام الموحد من العلاقات التي تربط بين تلك الجوانب والمستويات]، فإن ذلك كله يمكن أن يعمل كدليل توجيهي إلى استكشاف جماعي [من قبل المتعلمين

[لأغوار النص الأدبي: وانطلاقاً من أن أبعاد كل من العبارة والمحتوى قد قسم إلى مادة (substance) وشكل (forme)، فإن شكل العبارة وشكل المحتوى والعلاقات التي تقوم فيما بينهما، يمكن أن تتيح فرصة استغلال جماعي للنص الأدبي من غير أن يؤدي ذلك إلى قتل كوامن المعنى فيه.

4 - إن الاعتراف بالمنزلة المزدوجة (double statut) للنص الأدبي من حيث هو موضوع أدبي وموضع بيداغوجي (lieu pédagogique) متميز، أمر مثقل بالاعتبارات التعليمية (didactiques) الخاصة بدور المعلم والطريقة التعليمية الموظفة في الاستغلال البيداغوجي للنص الأدبي.

- يلعب المعلم دور المنشط الذي من شأنه، على نحو ما، أن يساعد المتعلمين على ارتياد الطرق التي تمكنهم من الدخول إلى النص (الجوانب الخطية والصوتية والتلفظية) (énonciative) والصرفية التركيبية والدلالية (sémantiques) وغيرها)، ولا يلعب دور القارئ النموذجي (architecteur) الذي يقدم قراءته على أنها المرجع الذي يحتذي به المتعلمون، وحتى إذا ما أدرك المعلم الأبعاد التفسيرية للنص الأدبي، فإنها يتوجب عليه أن يكون مدركاً للتفاوت الحاصل بين معارفه وبين تلك التي يتعين عليه أن يستثمرها في نطاق الدرس.

- يجري استثمار جماعي للنص، ويدعى المتعلمون إلى مباشرة التعرف على المكونات التي ينبنى عليها معمار النص الأدبي سواء تعلقت بالمستويات المختلفة الخاصة ببنية النص أو بالمجال العلائقي الذي ينتظم وفقه. ويتمثل الهدف من وراء ذلك الاستثمار له في جعل كل متعلم يقدم بنفسه على صياغة [بناء] فرضيته القرائية (son hypothèse de lecture) له من خلال المشاهدة أو الكتابة.

- وفي مرحلة ثانية، يدعى كل متعلم إلى تبرير مصداقية فرضيته القرائية من خلال الرجوع المنتظم إلى النص الأدبي ومكوناته... وعليه فبالإمكان أن يطرح النقاش انطلاقاً من القراءات المختلفة، ولا يتدخل المعلم إلا إذا طرحت مشاكل تتعلق بفوارق ثقافية...

- وفي الأخير، يدعى المتعلم بالطبع إلى إعادة توظيف عمله القرائي في تمرين كتابي من قبيل النموذج: «أكتب على شاكلة أسلوب النص...» (à la manière de....) أو النموذج: «تخيل ما جرى من قبل أو فيما بعد...»، كما يمكن من الناحية التطبيقية معرفة ما إذا أدرك المتعلم أن المصاعب التي واجهها في القراءة صارت هي تلك التي واجهها في الكتابة [التحرير].

5 - تبقى بالتأكيد نجاعة هذه الطريقة ذات البعد السيميائي (sémiotique) على المدى البعيد، مشروطة بحصول الانسجام في اختيار ال: «مواضيع - نصوص أدبية» التي تضمن إقبال المتعلمين على متابعة الدرس.

إن الرغبة في الاختصار قد طبعت عرض هذه التجربة بأسلوب يقيني [دوغمائي] نأسف له، لأنه يتعلق كما هو واضح بنتائج نسبية تخضع للتأمل والمناقشة... غير أن التجربة التي أجريت في جامعة تولوز 2، خلال السنوات العشر الأخيرة قد أظهرت على الأقل، الحاجة الملحة إلى توفر طريقة تربوية صارمة إذا ما كنا نرغب فعلا في استثمار مواضيع - نصوص أدبية على نحو ناجع، ضمن درس خاص موجه لذوي المستوى التعليمي المتقدم، وفي هذه الحالة، فإنه يستحيل أن نبخل بتوسل كل الأسس النظرية الضرورية.

الهوامش:

1 - ترجمة لمقال: «Didactique et texte littéraire: essai de théorisation d'une expérience» pédagogique.

لصاحبة: «ف.ك. كودار» (F.C Gaudart) من جامعة «تولوز لي ميراي» (Toulouse-le-Mirail)، وكان المقال موضوعاً لمدخلة قدمت في الملتقى الدولي 8 برشلونة (21 - 24 ديسمبر 1988) حول الطريقة التعليمية المعروفة باسم «Structuro-Globale» «Audio-visuelles» أي (SGAV): «البنوية الشمولية السمعية البصرية» والمقال منشور في «مجلة الصوتيات التطبيقية»: «Revue de Phonétique Appliquée»، رقم: 95 - 96 - 97 لسنة 1990، الصادرة عن جامعة مقاطعة «مون» (Mons) ببلجيكا، المترجم.

1 - تمكّن اختبارات قياس المستوى من تفويج المتعلمين بناء على توفر ملكة لغوية متقاربة فيما بين أفراد كل فوج، غير أن هؤلاء المتعلمين كانوا من جنسيات متعددة، المؤلف.

2 - الألفاظ المكتوبة في النص المترجم بخط مغاير هي من عمل المؤلف، أما الأقواس المعقوفة [...] الواردة في النص فهي من عمل المترجم.

3 - «مانسوي - م» (MANSUY-M) في مقاله: «تعليم الأدب» (L'enseignement de la littérature) الذي قدمه في الملتقى الذي أقامته «كلية الآداب الحديثة» بجامعة ستراسبورغ ما بين 13 و16 ديسمبر 1975، نشر: Paris, Nathan 1977.

مراجع المقال:

PEYTARD, J.BERTRAND, D.BESSE, H.BOURGAIN, D.COSTE, D.PAPO, E.PELFERNE, A.PAPO, E.PORCHER, L.STRICK, R.Littérature et Classe de Langue, Français Langue Etrangère, Langues et apprentissage des Langues; Credif, Hatier, Paris, 1982.

ARRIVE, M.Postulats pour la description linguistique des textes littéraires, Revue de Langue Française, n°3, 1969.

BESSE, H.Des convenances du discours littéraire à la classe de langue, Revue le Français dans le Monde, n°166, Janvier 1982.

CHAROLLES, M. Introduction aux problèmes de la cohérence des textes, Revue Langue Française, n°38, Besançon, 1978.

DESTARAC, C., et THYSSEN, L., Les textes littéraires dans l'enseignement du français langue étrangère, DEA de sciences du langage, sous la direction de Paul Rivenc, Université de Toulouse-le Mirail. Juin 1986.

GAUDARD, F.-CH., De l'utilisation des textes littéraires en classe de langue, essai de la description systématique, in Actas de las IXas Jornadas Pedagogicas sobre la Ensenanza del Frances en Espana, institut des Ciencès de l'Educacio, Universitat Autònoma de Barcelona, 1986, 15-43.